

٣- كلمة أخرى عن الخير

تكلّمنا في المقالات السابقة عن: الخير، والعمل الخيّر، والإنسان الخيّر..

وبقى أن نكمل هذا الموضوع بكلمة بسيطة عن الخير وعن وسائله أيضًا..

قلنا من قبل إن الخير لأبد أن يكون في ذاته، وخيرًا في هدفه، وخيرًا في وسيلته، وبقدر الإمكان يكون خيرًا في نتيجته.

ونحن نتكلم عن الخير بمعناه النسبي فقط، أقصد بالنسبة إلى ما نستطيع إدراكه من الخير، وما نستطيع عمله من الخير.. وأقصد الخير بقدر فهمنا البشري له، وبقدر طاقتنا المحدودة في ممارسته..

لذلك فالإنسان الخير يعمل باستمرار على توسيع طاقاته في عمل الخير. ولا يرضى عن الخير الذي يعمله من أجل اتجاهه نحو خير أكبر.. وفي اشتياقه نحو اللامحدود، يشعر في أعماقه بأن هناك آفاقًا في الخير أبعد بكثير وأوسع مما يفهمه حاليًا.

وربما بعدما نخلع هذا الجسد المادي، وندخل في عالم الروح.. سننظر إلى ما عملناه قبلاً من خير، فنذوب خجلًا! ونتوارى منه حياء!! فكم بالأولى ما قد ارتكبناه من شر..!؟!

لهذا فإن مستوى الخير عند القديسين أعلى من مستواه عند البشر العاديين. ومستوى الخير عند الملائكة أعلى بكثير من مستواه عند البشر أجمعين. أما مستواه عند الله، فإنه غير محدود، وغير مدرك.. حقًا ما أعجب قول الكتاب عن الله: "إن السماء ليست ظاهرة قدامه، وإلى ملائكته ينسب حماقة"!!

إن الله هو صاحب الخير المطلق، وأعمالنا تعتبر خيرًا بقدر ما تدخل فيها يد الله.. وبقدر ما نسلم إرادتنا لمشيئة الله الصالحة، فيعمل الله فينا، ويعمل الله بنا، ويعمل الله معنا.. ونكون نحن مجرد أدوات طيبة في يد الله الكلية الحكمة والكلية القداسة..

وبقدر بعدنا عن الله، نبعد عن الخير..

يبعد الإنسان عن الخير، عندما يعلن استقلاله عن الله..

عندما يرفض أن يقود الله حياته. وعندما تبدأ إرادته البشرية أن تعمل منفردة!

أما القديسون فإنهم يحيون حياة التسليم، التسليم الكامل لعمل الله فيهم.. هؤلاء لا تكون عليهم دينونة في اليوم الأخير.. وكأن كلا منهم يقول للرب في دالة الحب: (على أي شيء تحاكمني يا رب؟ وأنا من ذاتي لم أعمل شيئاً! كل شيء بك كان، وبغيرك لم يكن شيء مما كان.. فيك كانت حياتي، وفي يدك استسلمت إرادتي..).

حياة الخير إذن، هي حياة التسليم.

هي الحياة التي فيها يسلم الإنسان نفسه لله كل فكره، وكل مشاعره، وكل إرادته، وكل عمله.. فإذا ما فكر، يكون له فكر الله، وإذا عمل فإنما يعمل ما يريد الله، أو ما يعمل الله بواسطته..

فهل أعمالك أيها القارئ العزيز هي أعمال الله؟ أم هي أعمال بشرية قابلة للزلل والخطأ والسقوط..؟

والخير كالماء.. دائماً يمشى، ولا يقف..

وإن وقف، أصابه الركود!

لذلك فالخير باستمرار يمتد إلى قدام، وينمو ويكبر. وباستمرار يتحرك نحو الناس ونحو الله.. لا يتوقف وينتظر مجيء الناس إليه يخطبون وده، بل هو يتجه إليهم، ويذهب دون أن يطلبوه.. ولأنه الخير، لذلك فيه عنصر المبادرة..

والخير فيه لذة. حتى إن كان مملوءاً آلاماً، فالألم حلوة، تريح القلب، ويجد الإنسان فيها عزاءً..

والخير لا يشترك إطلاقاً مع الشر، لأنه أية شركة للنور مع الظلمة.

لذلك نحن لا نوافق إطلاقاً على المبدأ المكيافيللي Machiavelli القائل بأن الغاية تبرر الوسيلة (الوسيلة)، أي أن للغاية الخيرة يمكن أن تكون تبريراً للوسيلة الخاطئة!!

إن وسيلة الخير ينبغي أن تكون خيراً مثله. والخير لا يقبل وسيلة شريرة توصل إليه. إذ كيف يجتمع الضدان معاً؟!!

فالذي يلجأ إلي الكذب لينقذ إنساناً، والذي يلجأ إلي القسوة والعنف لكي ينشر بهما الحق أو ما يظنه حقاً، والذي يلجأ إلي الرشوة لكي يحقق لنفسه خيراً، والذي يلجأ إلي الإجهاض لكي ينقذ فتاة، كل أولئك استخدموا وسائل شريرة لكي يصلوا بها إلي الخير أو ما يظنونه خيراً..

ولكن لعل البعض يسأل:

ماذا نفعل إذن، إن كنا مضطرين إلى هذه الوسائل!؟

أقول إن هذه كلها وسائل سهلة وسريعة، يلجأ إليها الإنسان تلقائيًا دون أن يحاول أن يبذل مجهودًا للوصول إلى الخير، دون أن يبذل تضحية، ودون أن يتعب أو يحتمل..

فالكذب مثلاً حل سريع وسهل. أما الإنسان الحكيم الخير، فإنه يفكر ويجهد ذهنه بعيدًا عن هذه الوسيلة ويقينًا أنه سيصل إلى وسيلة أخرى تريح ضميره..

كذلك العنف والقسوة، كلاهما حل سهل يلجأ إليه إنسان لا يريد أن يتعب في الوصول إلى حل آخر وديع ولطيف..

إن الخير يريدك أن تتعب لأجله..

ولا تلجأ إلى الحلول السهلة، السريعة الخاطئة..

وبمقدار تعبك من أجل الخير، تكون مكافأتك عند الله. وبهذا المقياس تقاس خيريتك (اقرأ مقالًا آخر عن هذا الموضوع هنا في موقع الأنبا تكلا في قسم الأسئلة والمقالات).. إن الحل السهل أو التصرف السهل، يستطيعه كل إنسان. أما الذي يكدر ويتعب للوصول إلى تصرف سليم، فإنه يدل على سلامة ضميره وحبه للخير.

قال السيد المسيح له المجد: **(أدخلوا من الباب الضيق)** لأنه واسع هو الباب، ورحب هو الطريق الذي يؤدي إلى الهلاك، وكثيرون يدخلون منه. ما أضيق الباب وأكرب الطريق، الذي يؤدي إلى الحياة. وقليلون هم الذين يجدونه..).

إذن ينبغي أن تتعب من أجل الخير، ينبغي أن تجد لذة في هذا التعب.

عليك أيضًا أن تفحص الوسائل التي تستخدمها للوصول إلى الخير، وتتأكد من أنها وسائل خيرة.. لأن هناك طرقًا رديئة قد يسلكها البعض من أجل محبتهم للخير!! وكما قال البعض: (كم من جرائم قد ارتكبت باسم الفضيلة)!!

إن الشيطان عندما يفشل في إقناعك بطريق الشر، ويجدك مصرًا على طريق الخير، حينئذ يقول لك: "خذني معك"!!..

وهكذا قد تسير في طريق الخير، ويسير معك الشيطان، ويرشدك في الطريق ويوجهك، ويقدم لك الوسائل، والخطط، والحلول..!!

والشيطان حينما يفقد السيطرة على الهدف أو على نوع العمل، قد يقنع بالسيطرة على الوسيلة.

أما أنت أيها القارئ المبارك، فلا تترك للشيطان شيئاً فيك، ولا تدخله معك في خطتك ومشروعاتك الخيرة، ولا تجعله يكسب أية جولة في صراعه معك..

واطلب من الله أن تكون نتائج عملك خيراً أيضاً.

ولا شك أنك قد لا تستطيع أحياناً أن تتحكم في النتائج. وقد تتدخل في الأمر عوامل شريرة خارجة عن إرادتك، محاولة أن تفسد نتائج مجهوداتك الخيرة..

إنك كما تجاهد بكل قوتك في أن تعمل الخير، كذلك فإن الشيطان يعمل بكل قوته لكيما يعرقل عملك.. ولكن لا تيأس، فإن الله موجود..

لهذا قلت إن العمل الخير، تكون نتائجه -بقدر الإمكان- خيراً أيضاً..

www.st-mgalka.com